زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابعة

بقلم

ملخص ما نشر سابقا

مريم ابنة الراعية صاده من الراهب ايلياس البلان هربت من دير الايتام في الناصرة لما قاسته من الاضطهاد ولجأت الى القس جبرائيل مبارك فوضعها تحت رعايته وهو صديق قديم لامها وادخلها بيت اخيه جرجي مبارك للخدمة . وهنالك هام بها عارف مبارك ابن صاحب المنزل فطفاها ووعدها بالزيجة . وقدم المنزل ابن عمه ايوب مبارك ضيفا فاعجب بحسن مريم فقصد غرفتها ليلا ليطارحها الغرام فتاجأه عارف وقتله غيرة وهرب . فاتهمت مريم بالجريمة واعترفت وهي في السجن بما جرى للقس جبرائيل فانقذها بنفوذه وسار بها تاركا ديره الى طبرية ليستر عارها . وهنالك اقام واباها في بيت منفرد عند الحمامات المعدنية على مقربة من المدينة وربيا تلا وأقام لها خادمة اسمها هيلانة كانت غاوية فهداها واحسن اليها ولكنها لم تصدقه التوبة . فلما ولدت مريم سرقت هيلانة طفلها ليلا بايعاز امها الشقية واخفته عندها . فوقع القس جبرائيل في حيرة مما جرى

تابع ما قبله

(الفصل العاشر)

ليس في العناصر الطبيعية وقواها ما يستمر ابداً ثائراً ، او يستقر ابداً هادئاً . وليس في قوى الانسان ومقاصده ما يخالف النواميس الطبيعية . تطمو السواقي والانهار ، ثم ترسب ، ثم تغور ، ثم تجف ، ثم يبعث الله فيها

ماء الحياة لتعيد على مسمعه نشيد التراوح الابدي بين الحب واليأس ، والثبات والتردد ، والخيبة والامل . وكذلك في الانفس البشرية ، وفي السامية منها خصيصاً . تملأها المقاصد النبيلة نوراً ، تكللها المساعي الشريفة آمالاً ، يعلو بها الايمان والاحسان الى ذروة الالهيات فتنور هنالك سوسناً ذهبياً . ثم يبعث الله من لدنه رسولاً لا يفرق بين فصول السنة ومراحل السالكين ، ولا بين سوسن الربى وزنابق الغور ، ولا بين سواقي الجبال والانفس البشرية ونفس القس جبرائل الفائضة حباً واحساناً اخذت بعد ان سُرق الطفل ان ترسب وتغور . فلقد وصل في جهاده الى مهجة تعجز النفس ان تتجاوزها مهما تعاظم عزمها دون ان يعترضها عارض يوقفها قليلاً فتستريح ثم تستأنف السير والسعي ناشطة مطمئنة . واما الحادث المحزن هذا فبدل ان يوقف القسيس اقعده ، واسكته ، وزعزع من العزم والايمان .

لقد فكر لاول وهلة ان يبحث عن الطفل علّه يظفر به فيعيده الى امه . وراح صباح ذاك اليوم ووجهته الحمامات قصد الاستقصاء . ثم انثنى عن عزمه واحجم آسفاً يائساً . وتاه في الحقول والجبال معظم النهار يساجل نفسه في الامر وهو يحس منها وهناً واضطراباً .

من يوم تولى شأن مريم واخذ على عاتقه امر تربيتها لم يهدأ له بال ولم تصفُ له حال من الاحوال . خلصها من الدير فوقعت في اشراك اشر من اشراكه واخبث . فجاهد في سبيلها دون ان يحفل بوشايات الاقارب والاخوان وبتنديد النساء والرهبان . ثم خلصها من السجن وقادى بمنصبه وبنفوذه من

اجلها . بل اقتبل الفضيحة والعار وخرج من الدير قبل ان ينتصر على خصومه فيه — خرج منه مدحوراً مذموماً وجاء بالفتاة يعيش واياها على شاطىء البحيرة متنكرين . جاء يستر عارها ويعينها طاقته على مشقة قدسها الله فيداوي نفسها ونفسه الكليمتين ويكفر نوعاً عن ذنب ابن اخيه

ولقد اعياه الجهاد في الناصرة واسقمه ضجيج الناس وقد اسكرتهم احاديث الافك والفسق والافتراء . ففر من المجتمع البشري هارباً يناجي الله في البرية ويستمد منه تعالى ما يعينه في بلاياه .

وها الاقدار ثانية تعيد الكرة عليه . فآثر معقوله هذه المرة على شعوره ولم يحرك في سبيل الطفل المفقود ساكناً . وقد يستغرب مثل ذا التصرف من القس جبرائيل . ولكنه لا يستطيع في ذا الوقت ان يثير في طبريا ما هرب منه في الناصرة . فان له في مريم قصداً يستوجب الستر والتنكر واذا لجأ الى الحكومة ينفضح امره ويخذل لا شك في مسعاه .

ولقد شاهد فوق ذلك من شقاء البنين والامهات ما يعذر في نظره السكوت عن سرقة طفل وُلد اثماً وحراماً . وعاد الى البيت يسلي نفسه بمثل ذي التأملات ويبررها بمثل ذا المنطق الفاسد . اعياه الجهاد فتعال يبوس العباد . وصرح متأوهاً تباركِ عقم الرمال ! تباركِ عقم البحار

وعوّل ألاّ يبحث عن ولد مريم وان يكتم امر سرقته عن الناس وكان ذلك مستحيلاً . فالقابلة نشرت الخبر في البلد وأم هيلانه لم تصرف عنها عيون الشبهة وتضيف اثماً الى اثم اشاعت انها سمعت احد التوتيين يقول انه

شاهد تلك الليلة رجلاً على الشاطئ، قبالة مدرسة اليهود قرب الحمامات يرمي في البحيرة طفلاً باكياً . فانتشرت الاشاعة وتجسمت حتى اصبحت عند الناس يقيناً . وقالوا محققين ذلك ان هذا الغريب لا يكتم مثل هذا الحادث الرهيب حادث السرقة ولا يسكت عنه لو لم يكن هو الجاني على الطفل وامه . بل قال احمد يخاطب محموداً في القهوة — لهذا الرجل على الفتاة مهر ثان يا محمود وقد قتل ابنها ورماه في البحيرة انتقاماً منها واشاع انه سرق ليبرىء نفسه . وهذا معقول .

ومرّ اسبوعان والقس جبرائيل يعلل مريم بالولد ولم يشأ ان يطلعها على الخبر قبل ان تشفى تماماً . ولكن هيلانه بعد ان قابلت امها جاءت يوماً تخبر مريم انها سمعت الناس يقولون ان سيدها رمى الطفل في البحيرة ليلة وُلد . فبهتت مريم بين تصديق وتكذيب وسارعت الى القس جبرائيل جائشة القلب تسأله ان يصدقها الخبر وتلح في طلب ولدها .

— أصحيح الخبر . قل لي . قل لي .

— ومن اخبرك ؟

— هيلانة .

وكان قد نما الى القس جبرائيل شيء من هذه الاشاعات .

— اريد ان ارى ولدي الان — هذه الساعة . قل لي من هي المرضعة فاذهب بنفسي اليها . او ابعث هيلانة الان تجيئني به . هيلانة ! يا بنت !

— اسمعي ، يا مريم ! سابعثها . سكني روعك .

ودخل القس جبرائيل البيت فاعطى هيلانة اجرتها و، و بكظم اغتياظه منها وقال :

— لم نعد في حاجة الى خدمتك ، يا بنت . روحي في سبيل الله يصلحك ويوفقك .

وراح يردد في نفسه — هذا جزاء الاحسان . هذا جزاء المعروف

وولى النهار ولم تعد هيلانة فازدادت مريم قلقاً واضطراباً . فنهضت باكراً وهي لم تنم تلك الليلة تطالب القس جبرائيل بولدها وتبكي .

— ما بالك لا تتكلم ؟ اذاً انا ابحث عنه — انا افتش عنه . وهمت مريم بالخروج من البيت .

— الى اين ؟ الى اين ؟ تعالي اخبرك . اجلسي وسكني روعك .

— ابني ولدي ، اين هو ؟ ولماذا لم ترجع هيلانه ؟

— ، بنتي ! سلمني الى الرب امرك . الرب اعطى والرب أخذ

— مات ! مات ولدي ! وجعلت تلطم خديها وتنتحب .

— لتكمل مشيئة الرب ، يا بنتي .

فصاحت مريم — كذاب ، كذاب ! انت قتلته . انت رميته في البحيرة ، صدقت هيلانا . صدق الناس . انت . انت يا قس جبرائيل —

وهجمت عليه هجوم اللبوة على صائد اصطاد شبلها . فصاح بها مريم !

— لا يخوفني صياحك . لا ترهبني نظراتك . ابني مات وانت قتلته ، انت رميته في البحيرة . ويلك يا قس جبرائيل من ربك ! ويلك مني ! والله

ساشكوك الى الحكومة ساخبر الناس . سارفع صوتي في كل مكان . الى الله اشكوك — أهذا معروفك يا سيدي ؟ أهذه طريق خلاصك ؟ ليتني لم اعرفك . ليتني بقيت في الدير . انت جررت علي البلاء . انت سبب فضيحتي في بيت اخيك . وجئت الان تقتل ابني وترميه في البحيرة . وما ذنب الطفل ؟ ليتك قتلتني انا . اقتلني . اقتلني وألحقني بولدي بفلذة كبدي . اسمعوا يا ناس ! هذا الرجل قتل ولدي ورماه —

— مريم مريم

— لا اسكت . لا اسكت . سابكي واتحب واشكو الى ان تروء الي ولدي . الى ان يسمعني الناس فيجارونك . الى ان يسمعني الله فيأخذ بثاري منك

— مريم . قفي ! قفي اكلمك .

وامسكها بيدها يصدها عن الخروج وأقفل الباب .

— اسمعي اخبرك حقيقة الحال — ابنك سُرق من البيت ليلة ولد

— كذب ! كذب ! انت قتلته .

— وسنبحث عنه فنلقيه ان شاء الله

— كذب . كذب . تلقيه في البحيرة ؟ انت رميته في البحيرة .

— مليح . انا رميته في البحيرة . فاعملي ما يخطر لك . وفتح اذ ذاك الباب .

روحي . روحي واتركيني في بلائي وحدي . ما بالك وقفت ؟ ما بالك سكت ؟ آه يا مريم لو علمت ما انا فيه . لو علمت ما انا اقاسيه

من اجلك . لو علمتِ ما انا ادبر لكِ . مريم ، بنتي ! سكني روعك . وانصتي الى كلامي . الحياة يا مريم لعنة في الارض — لعنة هي الحياة . خير لي لو لم تلدني أمي . خير لكِ لو لم تلدك امك . امك ! أتعرفينها ؟ اباكِ ! أتعرفينه ؟ ألم تلعنيهما امامي مراراً ؟ كذلك ولدكِ المولود بالاثم يلعنك . المجتمع البشري لم يزل ينظر الى مثلك وابناً مثلك نظر الامير الى عبيده . والحكومة لا تتعكم بشيء من حقوق الانسان . تعيشون مذمومين ، منبوذين ، يائسين ، يائسين . وحقاً لكم ان تعيشوا مثل اسيادكم الادعياء في مجتمع نخر السوس عظامه وألبسه الظلم ثوب الجلاّد . مريم ! بنتي . لا يحرمونك الحقوق الاجتماعية والمدنية والدينية فقط بل يفسدون عليكِ حقوقك الطبيعية . يقول لكِ الكاهن — ولدتِ بالاثم فالجحيم مأواكِ . ويقول لك القاضي — ولدت خارج الشرع فلا حقوق لك في مجتمع شرعه لطان . ويقول لك عبيد العادات والتقاليد — ولدت في الفسق والشقاء فاقترشي الفسق حياتك وألبسي الشقاء حتى مماتك . اما انا وليك ، ابوك ، اخوك ، صفيك ، فاقول لك يا مريم ولدت كما تلد الازاهر ، وكما تلد الاطيار ، وكما تلد مخلوقات الله جمعاء ، فلا احرمك عطفي وحبي وولائي الى ان يحرمك الله نور شمسه . لا تبذك يا مريم الى ان تنبذك الشمس وينبذك القمر . فاشكري الله الان على خلاصك . ولا تستسلمي الى الحزن فتنتكسي . انا لكِ ما زالت لي قوة تساعدني على السعي في سبيلك — في سبيل سعادتك . جئت بكِ هذه الناحية لاقيك شر الناس ، لانقذك من

البلاء والعار . وقد فزنا بشيء من رغبتنا والحمد لله . ليس لبشر كل ما يريد في الارض . كم من امهات يلدن ويحزن ساعة الولادة ! بل كم من امهات يمتن في الولادة ! وكم من امهات يربين اولادهن ويفقدنهم وهم في عنفوان الشباب ! وكم من بنات تبتلين مثلك فلا يجدن مأوى يأوين اليه ولا من يعطف عليهن ويمد اليهن يداً بيضاء . فاشكري ربك يا بنتي . ما زلت معك لا يمسك شر ان شاء الله .

— واي شر اكبر من هذا الشر ! ليتك تركتني في عاري ، في بلائي ، فاتعزى في الاقل بولدي .

— لتعزيك الان سلامتك ، يا بنتي .

— لا كانت سلامتي — لا كانت .

ولزمتها اذ ذاك نوبة عصبية فأغمي عليها وسقطت الى الارض فنهض القسيس بها يعالجها حتى استفاقت ولزمت ذاك اليوم فراشها . ثم اخذت بعدئذٍ تقضي حاجات البيت وقلما تفوه بكلمة . وظلت اسبوعاً على هذا الحال . تخرج ووليها الى النزهة على شاطىء البحيرة او في منحدرات الربى فتنصت لارشاداته وتمتثل اوامره وهي ساكتة مطرقة . وفي ذات يوم سألته عن عارف مبارك ، فقال لها انه بعث يبحث عنه في حيفا فلم يجده وقد كتبت الى اخي يوسف وهو الان في سوريا على ابنه يكون هناك وكتبت ايضاً الى مصر — فعسى ان يجيئني جواب مرضٍ من احدى البلادين قريباً

— يا قس جبرائيل —

— نعم يا بنتي.

فنظرت مريم اليه ساكتة وقد ترقرقت عيناها بالدموع · فطايبها وحاول ان يستطلع ما تفكر به فلم تتكلم ؛ كأن ما في نفسها من الغم والحسرة اوقع السكتة في لسانها · وظلت كذلك اياماً لا تدري ما تصنع وما تقول ؛ كأن شيئاً رهيباً غير حزنها عَلَى ولدها بدأ يشغل قلبها ويضرم فيه نيراناً زادها السكوت التهاباً · فتسمع في النهار تأجيجها وتكاد ترى في ظلمات الليل شرارها

والقس جبرائيل وهو لا يدري لسذاجة فطرية فيه ان الفتاة تسيء فهم كلامه ولا تهتدي الى الصواب في تصرفه كان يواظب عَلَى خطته صابراً ، متجلداً ، متيقناً ان سعادة مريم موكلة بها · فخاطبها مرة يقول

— لِمَ هذا السكوت يا بنتي ؟ ما بالك لا تكلميني ؟ لِمَ انتِ دائماً يائسة ؟ ألم اخلصك من السجن ؟ ألم انقذك من الموت ؟ ألم اخرج من الدير واتنكر في هذه الاثواب من اجلك ؟ ألم اقتبل الفضيحة والعار حباً بك ؟ ألم أبذل ما بوسعي لاعيد اليك طهارة ماضيك ؟ لقد اخطأت مرة وجل من لا يخطأ · وسوف لا تخطئين ثانية باذن الله · فقد ذقتِ مر الحياة —

فقاطعته مريم قائلة — نعم وذقت حلوها ايضاً · ووقع عندئذٍ نظرها عَلَى نظره فارتعشت نفسها بل احست بسحر عينيه يجري في عروقها كلها فيسكن آلامها ؛ بل شعرت بلذة غريبة من مجرد نظراته تلك الساعة · فاخذها بيدها واجلسها الى جنبه قائلاً

— حلو الحياة يزول يا بنتي ؛ وذكراه حينما يزول تؤلم . اما سر الحياة فيلازمنا الى القبر . حقيقته وذكراها كلتاهما مكربة موجعة . كلتاهما توجع وتغم . وليس اشقى من المجرمين غير البائسين الذين يولدون خارج الحظيرة . يولدون وتير العبودية على رقابهم . يلعنون في المهد . يرهقون في المدارس . ينبذون في المجتمعات . ويساقون الى المآثم والجرائم . ألا تذكرين كيف عوملت في الدير ؟ فلو كان لك اب يكرمك وام تواسيك لما شقيت يا بنتي . فلا تحزني ولا تجزعي . وروحي الى طبريا تشاهدي هناك شقاء البنين والامهات . مريم ؛ اني احبك . احبك من صميم قلبي . واود صالحك . وانشد سعادتك . واسعى في سبيلك طاقتي . احبك ابنة لي واختاً . ولقد نجوت الان من البلاء والعار وستكونين رفيقتي ان شاء الله في هذه الوادي وادي الدموع . ستقيمين معي ان شئت وستلاقين دائماً ما يسرك ويرضيك . سيفتح الله طريقاً لك تتنعمين فيها . واذا كنت تتضجرين مني ولا تريدين الاقامة قربي فسيكون لك من تحبين . ولكني اقسم بالله انني لما اكون قربك اشتم شذاء نفسك فانتعش . وارى في عينيك نوراً يشع في فؤادي فيدفئه . النور يا بنتي . في النور خلاصنا . في النور سعادتنا . شذا الورد خير من الوردة . خيال الشجرة قصيدة حبها . انغام الاطيار ألذ ما فيها . انت الان ابنتي . ولي في ظلك ونورك ونغمات صوتك وطيب شذاك ما يخفف آلامي فيك ان شاء الله . لا . لا . لن اعود بك الى الدير . فاني اعلم منك باسراره وخباياه . ولكني اعد لك في سويداء

قلبي مركزاً لا تمسه يد بشرية ولا تدنسه الاهواء والشهوات . في الحياة الروحية ، يا مريم ، وفي البعد عن الناس وعن الاديرة تمام السعادة . وانا لك بيناً على شاطىء هذه البحيرة في هذه الارض المقدسة نقيمين فيه ومن تحبين . لا اخالك تجهلين ، يا مريم ، ما اقاسيه في مناهضة الميول السافلة وفي مكافحة الشهوات . هاتي يدك ارفعك الى الذروة التي وصلت اليها . انظري الي . هاتي يدك ارفعك فوق ما فيك وفي من اثار بربرية وغرائز حيوانية . لا شيء يدوم ، يا مريم ، غير الروح وآثارها السامية . اللذات تزول يا بنتي ولا يزول قرفها ، ولا تزول سوء مغبتها . ما بالك ؟ ألا يروقك كلامي ؟ أتضجرين مني ؟ تكلمي ولا تخافي . ألا تريدين ان تبقي معي وان تقيمي في الاقل بجواري ؟ انا مدبر لك ما يرضيك في الحالين . فلا تتبرمي ، ولا تستسلمي الى السكوت واليأس والسويداء .

— ليس في طاقتي . ولا اعرف كيف اعبر عما في قلبي . فلا تؤاخذني اذا سكت .

— ولكني لود ان اصرف افكارك عن حزنك . فان التفكر الدائم في ما كنت فيه يضرك .

— الموت خير لي من الحياة . ولو فهمت معنى كلامك فلا افهم معنى ما في نفسي . وما في نفسي يكاد يقتلني .

— اعترفي لي بذلك ، يا بنتي ، ولا تخافي . الاعتراف مريح للقلوب الكليمة

— وكيف اعترف لك وانت سبب حسرتي وبلائي . منذ عرفتك

يا سيدي منذ رأيتك اول مرة منذ اخذت يدي بيدك . سرى الي منك شيء عجيب لا اعرف ما هو نور فؤادي وفتح عيني وبدد غيمة اثقلت وقتئذ نفسي واظلمتها . ولم يزل ذاك الشيء العجيب ينمو في ويزعجني . يعذبني ، وبالاخص حينما اكون قربك .

وسكتت مريم هنيهة محنية الرأس ثم نظرت اليه نظرة حادة صافية كأنها فازت على ما يقيد نفسها ويضغط عليها وقالت — أتريد ان تعرف ما في اعماق قلبي ؟ أتريد ان تطلع على رغبتي ؟ أتريد ان تعرف سبب حزني وكمدي وحسرتي ؟ أتريد ان اريك نفسي التي تحترق وتحرق كل جسمي ؟

— تكلمي . تكلمي . ولا تخافي .

— بل اخافك . واشعر عندما اكون قربك كأني واقفة على شفير الهاوية . وفيها ما يجذبني اليها ويحببني بعمقها وبظلماتها . فهل تخطىء الفتاة اذا اظهرت ما في قلبها . اذا اعربت عن رغبة تحرقها وتحرمها النوم ؟

وسكتت مريم تنتظر جواب القسيس فلم يفه بكلمة . ثم قالت — ألم تدرك معناي ؟ ولدي . ولدي . انت سلبتني ولدي . انت قتلته ورميته في البحيرة .

— لا تعيدي هذا الكلام يا مريم . لا تعيديه .

— أتنكر ان ولدي مات . اذاً — وهذه رغبتي — اسأل الله ولداً بدله . واسألك انت انت — اطلب منك .

ولكنها حجبت وجهها عنه وطفقت تبكي . ثم جثت عند قدمي القسيس

وأخذت يده تقبلها وتقول — سامحني . واغفر لي . انا ابنة خاطئة . انا امرأة ضعيفة . فقيرة . حزينة . وحيدة . ليس لي في العالم غيرك . سامحني . ساظل معك . ساكون خادمتك . بل عبدتك . ساذهب واياك حيث شئت .

— انهضي يا بنتي . الله يغفر لك ويبارك . انهضي . آمني بالله . آمني بنفسك . آمني بي . الايمان يا بنتي يذلل كل ما في الحياة من الاهواء المهلكة والاميال . آمني بالله وبنفسك التي هي من عنده تعالى . وفكري بمن مشى على هذه البحيرة وقدّس بخطواته وبكلماته هذه الربى . فكري بالمربيات اللواتي رفعهن الايمان الى روحيات السيد المسيح . اسمعي يا بنتي . سنبقى هنا بضعة ايام ثم ننقل الى بيتي في سهل المغير . واذا كنت لا تحبين الاقامة هناك نسافر الى لبنان فنقيم هنالك في ظل الارز في تلك الجبال المقدسة وعسى ان يجيئني قريباً جواب من سوريا فنلتقي هنالك بعارف او ابعث لاستدعيه الينا .

فاجابت مريم برأسها بالايجاب وهي دفينة غمها . واقاما في ذاك الكوخ على شاطىء البحيرة اسبوعاً آخر كان القسيس فيه يظهر لمريم اضعاف ما عودهاه من العطف والحب والحنان ولكن مريم لم تجد في ذلك تعزية لنفسها او مرهماً لقلبها .

وفي ذات ليلة نهضت من فراشها تهرب من نار ليلها الآكلة ومشت الى الجهة التي ينام فيها الراهب فرأته متربعاً في فراشه منكساً رأسه كان يصلي ولم يرها فاصبحت واجفة . خجلة . وعادت الى فراشها ذليلة . وفي اليوم

الثاني نهضت على عادتها واليأس مالكها والذبول يخجب وجهها . فراحت تهيم في البرية وتقول — سئمت لطفه . سئمت كرمه . سئمت معروفه . سئمت نعماه . سئمته . مللته كرهته .

وفي ذاك اليوم سافر القس جبرائيل الى تلحوم ليرى اذا كان جاءه جواب من سوريا او من مصر . وبينا مريم عائدة الى البيت من نزهتها مرّت بالحمامات فشاهدت بعض السياح قادمين من سمخ . فوقفوا هناك ليتفرجوا على الحمامات . فسمعتهم مريم يتكلمون الافرنسية فألقت الى المرأة بينهم السلام وعرضت عليها خدمتها — أتريدي ان تتفرجي على الحمامات ؟ « پار ايسي مدام »

فاستوقفت نظر السيدة الافرنسية وقد أعجبت بها . فسألتها مازحة اذا كانت تحب ان تسافر معها الى فرنسا فتخدم في بيتها هنالك .

فاجابت مريم على الفور بالافرنسية — « وي مدام آفك پليزير »

فقالت السيدة وقد اعجبت بمريم كثيراً — تعالي الى النزل في طبريا سأسافر بعد يومين الى حيفا ومنها الى مصر .

— « وي مدام آفك پليزير مدام »

ولما عاد القس جبرائيل من تلحوم كانت مريم تنتظره في البيت وقد اعدت العشاء . فاخبرها انه بعث رسولاً الى اخيه في سوريا وسيعود بعد اسبوع . وانه بعد يومين ينقل واياها الى البيت في سهل المغير .

— يا بالك لا تحبين ؟

— ارادتي في يدك ·

— حسن · حسن يا بنتي · ليبارك الله ·

وفي اليوم التالي شخص القس جبرائيل الى سمخ لقضاء حاجة تختص باملاكه في السهل فاستغنمت مريم الفرصة وذهبت الى النزل في طبريا لتقابل السيدة الافرنسية · وبعد ان استطلعت هذه شيئاً من امرها وتحققت رغبتها أوعزت اليها ان تجيء صباح الغد باكراً فتسافر معها الى حيفا ومنها في المساء الى مصر · فعادت مريم مستبشرة بقرب خلاصها فرحة بالسفر الى فرنسا مع سيدة جليلة افرنسية · ولما وصلت الى البيت كان القسيس يضرم النار في الموقد ليسخن شيئاً من الطعام · فسألها — اين كنت فاجابت كنت في طبريا ·

— وما غرضك هناك يا بنتي

— التفرج والنزهة ·

فسكت القس جبرائيل ثم قال — لا تروحي مرة ثانية وحدك الى ابعد لو اظهرت لي رغبتك لرافقتك · وتناول واياها العشاء مساء ذاك اليوم وهو مسرور بما شاهد في نفسها من الخفة والبشاشة · ومسرور بقرب رجوع رسوله يحمل اليه واليها خبراً من اخيه يوسف مرضياً ·

ونام تلك الليلة مطمئن النفس ناعم البال ولكنه طلب مريم في صباح اليوم الثاني فلم يجدها ·

-(الفصل الحادي عشر)-

من عادات اكابر الفرنسيس وخاصة منهم اكابر الطبقة الوسطى طبقة الـ« بورجوازي» انهم يستخدمون في بيوتهم لتربية اولادهم المربيات الاجنبيات وقد امست العادة هذه زياً تجري عليه ربات البيوت ويُفرطن فيه ، حتى ان الواحدة منهن لتفاخر اترابها بتعدد اولئك المعلمات في بيتها . فتذكر مس جيسي مثلاً مربية ابنها الانكليزية اذا ذكرت سيارتها الجديدة . وتشير ازدهاء الى رأي السنيورا كارولينا معلمة ابنتها الموسيقى اذا تكلمت عن الرواية الاخيرة في الـ« أوبرا » وتثني على فرولن شمت المعلمة الالمانية اذا ذكرت المناوشة الاخيرة بين الالمان والفرنسيس في تنسي او في متز . ولا تنسى مس الله اعلم الاميركية معلمة اولادها الـ« جمنستيك » والرقص اذا كان الحديث في المال والازياء الاخيرة . وفي اكثر الاحايين تدور على الاولاد من كثرة المعلمات الدوائر . وتدور على السيدة ربة البيت ايضاً اذا كان زوجها ضجراً ملولا وكانت المعلمة قد خصت بشيء غير العلم .

اما مدام لامار فارملة لا زوج لها غير الاحسان . هي من السيدات الافرنسيات المتدينات اللواتي يوقفن على المستشفيات والاديرة في الشرق الاموال الطائلة ويحسنّ الى رجال الدين عندنا احساناً جماً متواصلاً . وهي تحب سوريا خاصة وابناءها . وتحب ان تقيم فيها وابنها الوحيد . لذلك شاءت ان تعلمه اللغة العربية . ولما جمعتها الصدفة بريم وعلمت انها بنيسة وانها تحسن اللغتين العربية والافرنسية ماجت في صدرها ثلاث عواطف

متباينة · فقالت في نفسها اولاً — « مسكينة هذه الفتاة » والشفقة في ذوي الاحسان عاطفة مطبوخة حاضرة · ثم قالت « نعم المعلمة لفرنسوا » · ثم همست في قلبها — « وسافاخر اترابي بمعلمة شرقية سورية »

ولقد احبت مدام لامار مريم وأعجبت بذكائها · ولما وصلت الى الاسكندرية مكثت فيها بضعة ايام تنتظر الباخرة الافرنسية وابتاعت للفتاة من ساحبات اللبس والسفر ما يجعلها اهلاً لرفقتها · فلبست مريم المشد والقبعة ذات الريش والحذاء العالي الكعب · وسرت سيدتها بشكلها الجديد وأعجبت بارتياحها في الزي الافرنجي كأنها اعتادته صغيرة · وبينا كانت واياها في السوق دخلت الى مكتبة تبتاع بعض الجرائد الافرنسية والمجلات فسألتها اذا كانت تحب المطالعة فاجابت بالايجاب · فاشترت لها رواية تأليف فرنسوا كبه ورسائل مدام دي‌ستال وكتاب « سياحة في الشرق » للامرتين · فتناولت مريم الرزمة من صاحب المكتبة وسألته قائلة — « وهل عندك كتب عربية ؟» فهز رأسه ازدراء · فتعجبت مريم — فقالت مدام لامار يظهر ان الكتب العربية لا تباع في البلاد الانكليزية

— واين تباع ؟ في فرنسا ؟

— أصبت · فقد اشترينا الكتب الافرنسية في مصر · وسنشتري الكتب العربية في باريس ·

فلم يعجب مريم ذا التهكم من سيدتها · وبينا هما سائرتان في شارع شريف باشا ، ومريم ، وقد استفزتها الغيرة الوطنية تحدق في شبابيك المخازن

علها ترى هناك كتاباً عربياً ترفع به شأن وطنها في نظر السيدة الافرنسية ؟ لاح لها في احد الازقة الى جانب الشارع الكبير جرنال عربي معلق بشريطة تحت صف من الزجاجات وفيها التبغ والسكاير وعلب الكبريت والواع الابازير . فطرقت وسيدتها تلك الناحية فاذا هناك دكة او بالحري دكان فيه شاب يكاد من ضيق مـا هو فيه لا يستطيع حراكاً . وراءه رفوف بعض الكتب مرصوصة بين صناديق من الكرتون عهدها اقدم من «العهد القديم»

فقالت مريم مستبشرة — وهل عندك كتاب عربي ؟

— نعم . عندي .

وسحب الشاب رزمة من خلال تلك الصناديق ونفض عنها الحديث من الغبار وفكها يعرض الاجزاء . فاستوقف نظر مريم عنوان احد الكتب فاخذته تقلب في صفحاته . فقال الشاب

— ذوقك سليم والله . ذوقك جميل . اهم كتاب طبع في هذه الايام . وقد احدث ضجة في العالم العربي . واقام العالم الاسلامي وافعده . مؤلفه من نوابغ الزمان . كتاب نفيس والله . ينبغي ان تطالعه كل امرأة شرقية . جاءني منه نسختان في الشهر الماضي ولم يبق غير هذه التي بين يديك . خذيها . فلا تندمي . طالعيها تستفيدي .

فاشترت مريم كتاب « تحرير المرأة » وراحت تترجم لسيدتها ما قاله الشاب فيه . فضحكت مدام لامار لسذاجة الشرقيين او مـا يظنه الافرنج سذاجة فينا وهي تفكر بكتاب وصف هذا الوصف وما بيع منه في شهرين

سوى نسختين .

— يحق لك ان تفرحي . فقد ظفرت بكتاب عربي

— نعم .

ووقفت مريم اذ ذاك تنظر وراءها كأنها رأت بين العابرين من تعرفه ثم تولى في مزدحم الناس . فسألتها سيدتها ما بالك فاضطرب عليها . ومشت توافقها الى شركة البواخر الافرنسية . فقضت مدام لامار حاجتها هناك ثم ركبت العربة تعود الى النزل . ولم تكد مريم تستقر فيها الى جنب سيدتها حتى رأت الشاب ثانية وهو داخل الى مكتب الشركة فصاحت على الفور « مدام مدام ! » كأنها تنادي احد رجال الشحنة . فاوقفت مدام لامار العربة تقول !

— هل نسيت شيئاً . فقالت مريم لا لا . وراحت تردد في نفسها — ما اشبهه به يا ربي ما اشبهه به

المصائب اذا تعددت ينسخ بعضها بعضاً . يزيل اللاحق منها السابق او يخفف اهواله . والفرح الشديد ينسي اجل الخطوب . لما فجعت مريم في ولدها نسيت عارفاً . ولما جدّ في حالها ما جدّ من سفرها مع السيدة الافرنسية نسيت القس جبرائيل وما قاسته في الناصرة وعلى شاطىء البحيرة من الشدة والعذاب . وما كان النسيان فيها غير ضربٍ من الرقاد يزول اذا لمسته الصدف بقضيب سحرها . ولما لمست في الباخرة في اليوم الثاني هبت العاصفة في صدرها عاصفة الحب والذكرى لمجرد وجهٍ رأته في مزدحم يموج بالالوف

من الوجوه البشرية . فندمت لانها لم تكلم ذاك الغريب لتحقق ظنها . ووقفت عند الغروب في مؤخر الباخرة تتكىء على الحافة وتنظر كئيبة حزينة الى زبد الامواج تحتها . ثم اخذت من صدرها الذخيرة التي اعطاها اياها القس جبرائيل ففاح منها اريج مروج الجليل وأسمعتها هديل حمام البحيرة فطفقت تقبلها وتبكي . وبين هي كذلك كان احد المسافرين يتمشى على ظهر البارخرة ويراقبها خلسة ، وكان قد رآها اصيل ذاك النهار تصعد الى الباخرة فراقه جمالها واشكل عليه امرها .

وقرع اذ ذاك جرس المائدة فمسحت مريم دموعها وما كادت تميل بوجهها حتى تراءى لها الوجه الذي ابصرته في المدينة — وجه من كان يراقبها . فاعترتها رعدة أغشت بصيرتها فهتفت قائلة — هل هو بعينه يا ربي أم أنا واهمة ؟ ولكنها حينما جلست الى المائدة رأته جالساً امامها فزالت دهشتها .

فدهشت مريم لهذه المبادرة واجابته بصوت شجي تمتزج فيه أنفة مع لطف ومعروف . لا يا خواجا . لست من مصر .

— من لبنان اذاً .

— فدهشت مريم لهذه المبادرة واجابته بصوت شجي تمتزج فيه أنفة مع لطف ومعروف . لا يا خواجا . لست من مصر .

— من لبنان اذاً .

— ولا من لبنان ، بل من فلسطين

— ولماذا كنتِ تبكين مساء البارح ؟ هل من حاجة لكِ اقضيها ؟

— لا حاجة . كثر الله خيرك .

وقالت في نفسها — ما ألطف هذا الشاب ، وما اجمل معروفه . ولكنها لم تدرك شيئاً من وراء ذينك اللطف والمعروف .

نجيب افندي مراد من اسرة كريمة غنية في بيروت شبه ميتها بصيت بيت مبارك في فلسطين . وهو من الشبان الاغنياء الذين يسافرون كل عام الى باريس ليذوقوا الحديث من لذاتها ، ولكنه سئم ما اعتاده هناك وملّه وصارت نفسه تصبو الى كل مستغرب جديد . ولما علم ان مريم مسافرة والسيدة الافرنسية الى باريس ازدادت رغبته بها ووطن النفس على اعلاقها . فرمى الشبكة على عادته في مثل ذي المواقف وطفق يعالجها بالطف يتخلله المبتذل من التغرير وبراعة تتراوح بين الادب والتمويه . وعشر النساء قلما يدركن كنه الاثنين اذا كان الصائد دقيق الحيل وقلما يميزن بين معروف هو ارجوحة للنفس نشأه كرم الاخلاق ومعروف هو احبولة للجسد ، فكيف بفتاة قروية ساذجة .

على ان مريم ، وان تكن من البنات اللواتي لا يطيب لهن عيش مجرد من الحب بعد ان يعرفنه فيعدن اليه راغبات مستهلكات رغم ما يقاسين منه ، وان تكن من الشرقيات اللواتي يتلجلج في انفسهن روح النساء البابليات ، بل تحتدم في عروقهن شعلة من تلك النار التي كانت تضرم في الهياكل

ان الزواج عبودية وتتزوج راضية لايحق لها ان تشكو العبودية . والرجل الذي يتولى الدفاع عنها وهي قانعة بما هي فيه راضية ، فاما ان يكون قليل الادب طفيلياً ، واما ان يكون منافقاً .

— أجد هذا منك ام مزاح ؟

— وهل في مثل ذا الموضوع باب للمزاح ؟ اقصى العجب من امرأة تلبس الحجاب رغم انفها ، وترضى بظلم الرجل كرهاً منها

— وماذا كنتِ تفعلين لو كنتِ من اولئك البائسات السجينات ؟

— امزق الحجاب بيدي ولا اكلف رجلاً الدفاع عني والرثاء لحالتي . عشر نساء يسرين سافرات الوجوه في شوارع المدينة خير من مئة كتاب يكتب في سبيل تحريرهن .

وجاءت اذ ذاك مدام لامار فرأت مريم تحدث الشاب الغريب فاستدعتها اليها تسأله عنه .

— لا يجب ان تحدثي احداً لا تعرفينه يا مريم .

— ولكنه عرّفني بنفسه وهو شاب اديب من بيروت — تجيب الفتاة تتفضلي مدام اعرفك به

فدهشت السيدة الافرنسية وانقبضت لذي الحرية في الفتاة وذي السذاجة . وافهمتها بعدئذٍ ان السيدات لا يعرفن بالرجال وانما الرجال يُقدمون الى السيدات

— كان ينبغي لكِ ان تستأذني اولاً فاذا أذنت تعرفين الشاب قائلة — اسمحي لي ، مدام ، ان اقدم اليكِ فلاناً .

فاعتذرت مريم اليها ووعدت ان تعمل في المستقبل باشارتها

وجعل نجيب مراد يتقرّب من السيدة ويجاذبها اطراف الحديث فراقها منه كياسة تكاد تكون افرنسية وعلمت من احد المأمورين في الباخرة ان الشاب من اسرة سورية كريمة ، كثير المال ، كثير التجوال . ولم تنته مدة السفر حتى تدرّج نجيب الى قلب مريم والى اكرام سيدتها . فلما رست الباخرة في مرسيليا كان فرنسوى لامار على الرصيف ينتظر امه . وفرنسوى شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين من سنه ، قصير ، لحيم ، ناصع البياض ، بليد البادرة . وبعد ان حيته امه وعانقته قدمت مريم اليه تقول — جئتك بمن يعلمك اللغة العربية — فرنسوى ابني يا مريم .

ثم عرّفت ابنها برفيق السفرة احد اعيان سوريا نجيب افندي مراد . فتصافح الاثنان وتبادلا المبتذل من عبارات السلام والسوري يتأمل الشاب ويفكر بمريم ، فقال في نفسه لا خطر في وجه سمين ويد باردة . ثم اعطته مدام لامار بطاقتها .

— ينبغي ان تزورنا في باريس .

— اتشرف مدام .

وودعهم نجيب مراد مطمئن البال يهنئ نفسه بنجاح الدور الاول من مشروعه . وبعد اسبوعين زار مدام لامار في بيتها وجالس مريم برهة يسألها عن حالها

— وهل انت راضية بهنتك مسرورة ؟

فهزت مريم كتفيها.

— وهل علمت سيدك قام زيد ؟ وضرب عمرو زيداً ؟

فابتسمت ابتسامة الضجر .

— وهل تأذن لك سيدتك بالخروج الى المدينة ؟

— يوماً واحداً في الاسبوع — يوم الجمعة .

— وهل خرجت تتفرجين على باريس .

— آذنتني مدام ان ارافق الخادمة شرلت الى البلد . فاخذتني الى قصر فخم يدخل اليه الناس واحداً واحداً مثل المعزى بين قضيبين من الحديد . والبوليس مثل الراعي يراقبهم ويعدهم . ولكن القصر من داخل جميل غريب . رأيته غاصاً بالناس وله مصطبة يحجبها ستار من المخمل كبير . امامه اناس يصوتون بآلات من النحاس كبيرة ويضربون على الدف والطبل وقد انتصب بينهم رجل بيده قضيب يرقص ويهول به كالمجنون . ثم رفع الستار عن بنات يرقصن ويغنين ويلعبن والرجال . لم افهم من لفظهم ورطاناتهم شيئاً ولكن رقص البنات أعجبني . الله ما ابرتهن وما ألبقهن . تقف الواحدة منهن على رؤوس اصابعها هكذا (وخلعت مريم حذاءها وحاولت التقليد) فتنتقل كالعصفور وتدور مسرعة كالبلبل دون ان تتع

« لها بقية »

وقع خطأ في السطر الثاني عشر من قصيدة « النهر المتجمد » المنشورة في صفحة ٧٨٣ وصوابه — هل اجمدتك كآبتي وسئمت ندبي والنواح